

**المحاضرة العاشرة :** ونلاحظ في الأسلوب هنا عظمة وروعة، ففي الشكر قال سبحانه: {وَمَنْ يَشْكُرْ..} [لقمان: 12] أما في الكفر فقال: {وَمَنْ كَفَرَ..} [لقمان: 12] ولم يقل: وَمَنْ يَكْفُرْ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْأَسْلُوبَيْنِ، والكلام هنا كلام ربٍّ، ففي الشكر جاء بالفعل المضارع {يَشْكُرْ..} [لقمان: 12] الدال على الحال والاستقبال، فالشكر متجدد ودائم على خلاف الكفر، وكأنه سبحانه وتعالى لا يريد من عبده الدوام على كفره، فلعله يتوب ويرجع إلى ساحة الإيمان، فجاء بالفعل الماضي {كَفَرَ..} [لقمان: 12] أي: في الماضي فحسب، وقد لا يعود في المستقبل، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم. ومعنى {حَمِيدٌ} [لقمان: 12] من صيغ المبالغة على وزن (فعليل) وتأتي مرة بمعنى (فاعل) مثل رحيم، ومرة بمعنى (مفعول) مثل قتيل أي: مقتول، والمعنى هنا {حَمِيدٌ} [لقمان: 12] أي: محمود وجاءت هذه الصفة بعد {غَنِيٍّ} [لقمان: 12] لأن الكافر لو كان يعلم أن الله لم يقطع عنه نعمه رغم كفره به لحمد هذا الإله الذي حلم عليه، ولم يعامله بالمثل، ثم يقول الحق سبحانه: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (13)

يعطينا الحق سبحانه طرفاً من حكم لقمان التي رواها القرآن الكريم: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ..} [لقمان: 13] قوله: {وَإِذْ..} [لقمان: 13] أي: اذكر يا محمد حين قال لقمان لابنه، وتوجيه حكمة لقمان ونصيحته لابنه يدلنا على صدق ما روي عنه أنه كان يفتي الناس ويعظهم قبل سيدنا داود عليه السلام، فلما جاء داود أمسك لقمان وقال: ألا أكتفى وقد كُفيت، ثم وجه نصائحه لمن يحب وهو ولده. ولذلك، فالإمام أبو حنيفة- رضوان الله عليه- عندما شكاه القاضي ابن أبي ليلى إلى الخليفة أنه يفند شكاواه وأحكامه، فأرسل إليه الخليفة بأن يترك الفتوى، وبينما هو في بيته إذ جاءت ابنته وقالت له: يا أبي حدث لي كذا وكذا- تريد أن تستفتيه- فماذا قال لها وهي ابنته؟ قال: سئلي أخاك حماداً، فإن أمير المؤمنين نهاني عن الفُتْيَا.

وَفَرَّقَ بَيْنَ أَنْ يَتَكَلَّمَ الْإِنْسَانُ مَعَ عَامَةِ الْخَلْقِ، وَبَيْنَ أَنْ يَتَكَلَّمَ مَعَ وَلَدِهِ، فالابن هو الإنسان الوحيد في الوجود الذي يودُّ أبوه أن يكون الابن أفضل وأحسن حالاً منه، ويتمنى أن يُعَوِّضَ ما فاتته في نفسه في ولده ويتدارك فيه ما فاتته من خير.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14)

أهذه وصية من وصايا لقمان لابنه، أم هي كلام جدي من الله تعالى جاء في سياق كلام لقمان؟ قالوا: هو من كلام الحق تبارك وتعالى، بدليل قوله تعالى بعد ذلك: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا..} [لقمان: 15].

ومن التكريم للقمان أن الله تعالى ساق هذه الوصية بعد وصيته لابنه، فجاءت وكأنها حكاية عنه.

ومعنى {وَوَصَّيْنَا..} [لقمان: 14] يعني: علّمنا ووعدنا، وهما يدلان على معلومات تبتدئ بعلمنا ويذكر بها في وعظنا، ويوفى بها حين جمعنا كل الخير في كلمة واحدة؛ لذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم عندما خطب الناس في حجة الوداع ذكر أمهات الفضائل، لماذا؟ لأنه آخر كلامه إليهم، والموقف لا يناسب أن يذكر فيه تفاصيل الدين كله، فاكتمى بذكر أسسه وقواعده، كالرجل منّا حين تحضره الوفاة يجمع أولاده، ويوصيهم، فيختار الأمور الهامة والخاصة في أضيق نطاق.

الله تعالى يقول: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ...} [لقمان: 14] والوصية بالوالدين بالذات أخذت رقعة واسعة في كتاب الله، في هذه الآية ذكر علة الوصية، فقال: {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَمَيْنِ...} [لقمان: 14].

وفي خمس آيات أخرى وردت كلمة (إحساناً)، في سورة البقرة الآية (83)، وفي سورة النساء الآية (36)، وفي سورة الأنعام الآية (151)، وفي سورة الإسراء الآية (23)، وفي سورة الأحقاف الآية (15) وفي آية واحدة وردت كلمة (حسناً) في سورة العنكبوت: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا...} [العنكبوت: 8]. وفي آية واحدة أيضاً جاءت الوصية بالوالدين دون ذكر لهاتين الكلمتين: (حُسناً وإحساناً) هي الآية التي نحن بصدد الحديث عنها.

لكن، ما الفرق بين (إحساناً) و(حُسناً)؟ الفرق أن الإحسان مصدر أحسن، وأحسن حدث، تقول: أحسن فلان إحساناً. أما حُسناً فمن الحسن وهو المصدر الأصيل لهذه المادة كما تقول: فلان عادل، فوصفته بالعدل، فإن أردت أن تبالح في هذا الوصف تقول: فلان عدل أي: في ذاته، لا مجرد وصف له، إذن: فحُسناً أكد في الوصف من إحساناً، فلماذا جاءت في هذه الآية بالذات: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا...} [العنكبوت: 8] قالوا: لأن هذه الآية تتعرض لمسألة صعبة تمسّ قمة العقيدة، فسوف يطلب الوالدان من الابن أن يشرك بالله. لذلك احتاج الأمر أن نوصي الابن بالحُسْن في ذاته، وفي أسمى توكيداته فلم يُقَلْ هنا (إحساناً) إنما قال (حُسناً) حتى لا يظن أن دعوتهم إياه إلى الشرك مبرر لإهانتهم، أو التخلي عنهما؛ لذلك يُعَلِّمُنَا ربنا: {فَلَا تُطْعَمُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} [لقمان: 15].

وإن كانت الوصية هنا بالوالدين ألا أن حيثيات الوصية خاصة بالأم {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَمَيْنِ} [لقمان: 14] فلم يذكر شيئاً عن دور الأب، لماذا؟ قالوا: لأن الكلام هنا كلام رب، وما عليك إلا أن تُعَمِلَ فيه فكرك وقلبك لتصل إلى دقائقه، ثم يقول سبحانه: {وَفِصَالُهُ فِي عَمَيْنِ..} [لقمان: 14] الفصل: أي الانفصال عن الأم في مسألة الرضاعة، ومنه: يسمون ولد الناقة الذي استغنى عن لبنها: الفصيل أي الذي فُصِلَ عن أمه، وأصبح قادراً على أن يأكل، وأن يعيش دون مساعدتها، وحتى عملية فصال الولد عن أمه فيها مشقة وألم للأم.

{وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ

سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15)}